بنديتو كروتشه

١٨٦٦ — ١٩٥٢

للأستاذ جمال مرسى بدر

فى العشرين من نوفمبر سنة ١٩٥٢ وفى مدينة نابولى الرابضة على خليجها مضرب المثل فى جمال الطبيعة، انتقل من الفانية إلى الباقية رجل من بقية الفلاسفة العظام ورواد الفكر الإنسانى وحملة مشعل الحقيقة — ذاك هو بنديتو كروتشه أكبر فيلسوف أنجبته إيطاليا منذ زمن بعيد، وأحد القلائل المشهود لهم فى عصرنا بعمق الأثر فى توجيه الفكر الحديث

ولد بنديتو كروتشه فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٦٦ فى بسكا سيرولى بمقاطعة أكويلا، ثم نزحت عائلته إلى نابولى حيث بدأ «بنديتو» تعلمه فى إحدى مدارس الكاثوليك شأنه شأن أغلب فتيان وطنه

وفى سنة ١٨٨٣ نكب بنديتو كروتشه وهو فى صدر شبابه بأبويه جميعا فى زلزال من تلك الزلازل التى لا تجهلها مدينة نابولى فغادرها إلى روما حيث عاش فى كنف عمه. ودخل الجامعة ليدرس الحقوق ثم تحول عنها إلى الآداب ولكنه على أية حال لم يكمل دراسته الجامعية إذ لم يلبث أن عاد إلى نابولى بعد سنوات ثلاث من إقامته فى روما

وفى نابولى عكف كروتشه سنين طويلة على دراسته الخاصة فى التاريخ والأدب والسياسة والاقتصاد والاجتماع وتفاعلت ثمار هذه الدراسات فى ذلك العقل الممتاز حتى أخرج صاحبه أول أثر فلسفى له فى سنة ١٩٨٣ وهو مجموعة مقالات فى «طبيعة التاريخ» وفى «مذاهب النقد الفنى»

ولقد كان للدراسات الاقتصادية فى تفكير كروتشه شأن كبير وانعكست عقليته الاقتصادية على كثير مما كتب وإن كان موضوعه غير متصل بالاقتصاد، ولقد بدأ اهتمام كروتشه بالدراسات الاقتصادية فى شبابه الباكر إذ عكف على ما كان يشغل العالم آنئذ (ولا يزال شغله) من مذاهب اقتصادية متضاربة وأخرج فيما بين سنتى ١٨٩٦ — ١٩٠٠ دراسات فى نواح من المذهب الماركسى

أما اهتمامه بالنقد الفنى الذى كتب فيه واحداً من أوائل آثاره فقد تجلى فى نشره منذ سنة ١٩٠٣ مجلته «النقد» التى تولت عرض أبدع أعمال الأدباء الإيطاليين ونقدها نقداً فنيا مذهبيا حقبة طويلة من الزمن بحيث أصبحت مجموعاتها مرجعاً لاغنى عنه لكل من يدرس الأدب الإيطالى الحديث La critica

ولم تتخلف عن أعمال كروتشه وكتاباته نتيجتها الطبيعية فذاع صيته فى الأوساط الأدبية والعلمية. ولم يلبث هذا الشاب الذى غادر جامعة روما قبل أن يتم دراسته أن أصبح قبلة أنظار جامعات إيطاليا التى تسابقت إلى عرض كراسى الأستاذية عليه، غير أنه رفضها جميعا مفضلا الاستغراق فى دراساته الحرة وبحثه المستقل الذى ينشر على الناس نتائجه فى كتبه وفى رسائله فتقع من أذهانهم ونفوسهم موقع الإكبار حيناً وموقع الإنكار حيناً آخر لغرابة ما كان يدلى به من آراء

روح الوطنية وجمعت كلمتهم على القيام بها وتأريث شعلتها فى وجه الاحتلال. وهى روح خبرها المازنى عن كثب فى هيئة مدرسته من مدرسين وتلاميذ، وممن كان يلقاهم فى الطريق — بين البيت والمدرسة — من أبناء الشعب وخاصة فى الأحياء الوطنية. فأعدته هذه الروح وتجاوب نداؤها الخفى بين جنبيه، وعرف أن قد آن له النزول إلى المعمعة وخوض النهار، وأن الفرصة قد سنحت لتحقيق نيته القديمة على ترك التعليم، فأغلق المدرسة واتجه صوب الصحافة ليخدم الثورة بقلمه

ولعله إلى جانب ذلك، قد دار بنفسه خاطر التأسى بالذين سبقوه من زملائه إلى التفرغ لرسالة الأدب مضحين فى سبيلها وظائفهم الحكومية، وكانت على ذلك العهد غاية مطمح الشبان؛ وكان المذهب الجديد والتمهيد له مما يحتاجون معه إلى توحيد الخطة وتجنيد الجهود. فلم يكد يحين الوقت للبدء فى إعلانه والدعوة إليه، حتى شمر المازنى عن ساعديه، وحمل — كما يقول — قلمه ومنعوله وعجرفته ولحق بأصحابه

يتبع

محمد محمود حمدان

ولئن تسابقت الجامعات الإيطالية لتظفر بكروتشه أستاذاً بها فإن الجامعات الأجنبية قد تسابقت إلى تكريمه بإسباغ ألقاب الشرف العلمية عليه، وأول ماناله من ذلك لقب دكتور شرفي في الفلسفة من جامعة فريبورج الألمانية

على أن كروتشه لم يعدم نصيبه من المناصب العامة في بلده إذ عين في سنة ١٩١٠ عضوا بمجلس الشيوخ ثم عين وزيراً للمعارف في وزارة جيوليتي فيما بين سنتي ١٩٢٠، ١٩٢١. فلما جاء العهد الفاشستي ابتعد كروتشه عن الحياة العامة لعدم توافق آرائه واتجاهات ذلك العهد وما كان يقوم عليه من فلسفة سياسية

ولقد أثمر تفرغ فيلسوفنا للبحث والدرس والتأليف ثماراً طيبة؛ إذ بلغت مجموعة آثاره المطبوعة سنة ١٩٢٦ عشرين مجلداً عدا ما كتبه بعد ذلك التاريخ وهو شيء كثير؛ إذ أنه لم ينقطع عن الدراسة والكتابة إلى أن أدركته الوفاة

وكان لكثير من آراء كروتشه الجريئة وأفكاره المبتكرة صدى بعيد وآثار بعضها حملة من الانتقاد والهجوم صمد لها كروتشه ودخل مع معارضيه في مجاولات طويلة تولاها بجنان قوي ويراع سوي

وقد اعتبر كروتشه عند الكثيرين من أتباع هيجل ووصفت فلسفته بأنها «هيجلية»؛ غير أن أغلب الباحثين اليوم — ومنهم الأستاذ جون ألكسندر سميث أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد — يخطئون هذا الرأي ويعتبرون كروتشه صاحب فلسفة خاصة تأثر فيها بكتابات اثنين من مواطنيه هما دي سانكتيس، وفيكو من كتاب القرن الثامن عشر

وإنه لما يجاوز نطاق مقال واحد الإلمام بجميع نواحي كروتشه والإحاطة بفلسفته التي قسمها إلى أقسام أربعة: فلسفة الجمال، والمنطق، وفلسفة السلوك (الاقتصاد والأخلاق)، وفلسفة التاريخ [1] وهو يراها في مجموعها وحدة لا تنفصم، وتشمل كافة مظاهر الوجود الإنساني

ولكن لا أقل من أن نلم في هذه المجالة بشيء من آراء كروتشه في فلسفة الجمال. ولعل اقتصارنا على جانب واحد من جوانب هذه الفلسفة الخصبة (فلسفة كروتشه) أكثر فائدة من مرورنا على عجل بكل جوانبها في حدود مايقتضيه المقام من إيجاز

بسط كروتشه مذهبه في فلسفة الجمال في كتابه الذي ظهر سنة ١٩٠٢ (وطبع بعد ذلك طبعات عديدة وترجم إلى أكثر من لغة أوربية) ثم في كتابات متفرقة أهمها المجموعة التي نشرت بعنوان «مقالات جديدة في فلسفة الجمال» (بارى سنة ١٩٢٦)

ليس كروتشه من أنصار فكرة المثل الأفلاطونية، وهو لا يرى الفن كما كان يراه أفلاطون محاولة لتقليد مثال الجمال الذي تحسه النفوس من بعيد مجردا عن موضوعاته وتسعى عن طريق الفن بمختلف صوره إلى الوصول إلى شيء من ذلك المثال، فكروتشه يرى أن الجمال — أو الفن — هو وموضوعاته شيء واحد، فهو من المنادين بالوحدة بين الجمال وبين موضوعه أو بين الفن وبين العمل الفني

يقول كروتشه إن الأفكار القبلية a piori كفكرة الجمال أو الفن ليست موجودة في ذاتها وإنما هي موجودة في الموضوعات المتعددة التي تتجلى فيها، والجمال أو الفن ليس مثالا بعيدا عن الإدراك تعجب به النفوس في ذاته! وإنما هو نفسه الأشياء الجميلة أو الأعمال الفنية التي يخطئها الحصر والتي وجدت وتوجد وستوجد في هذا العالم المتغير

ومن هذه الوحدة بين الجمال وموضوعاته وبين الفن والأعمال الفنية يخرج كروتشه بتجديد مهمة فلسفة الجمال لا على أنها (كما كان مسلما) تعريف الفن تعريفا يسمح بمعرفة قوانين الجمال الأزلية التي تحكم كل مظاهره، وإنما على أنها محاولة دائمة لتنظيم وتبويب مظاهر الجمال الفني التي تتعدد وتتسع على مر الزمن، فهي بهذا الوصف علم متجدد نام دائما أبدا

والعمل الفني عند كروتشه ليس هو الشكل المادي الذي يتجلى فيه ذلك العمل للناس ويبقى فيه على الدهر كالألفاظ في

(١) ضمن كروتشه فلسفته مجلدات أربعة نشرها تحت عنوان مجموعي «فلسفة الروح» le filosfia della spirito وقد ظهرت بالترتيب التالي
فلسفة الجمال Estetica : سنة ١٩٠٢
المنطق logica سنة ١٩٠٥
فلسفة السلوك la filosfia della pratica سنة ١٩٠٨
نظرية التاريخ Teoria della storiografia سنة ١٩١٦

الشعر وكالخطوط والألوان فى التصوير ، وإنما العمل الفنى عنده هو الحالة النفسية أو الانفعال النفسى لدى الفنان المبدع ولدى غيره ممن يتذوق ما أبدعه الفنان . وعلى هذا يقول كروتشه إن الأشياء الجميلة والأعمال الفنية غير موجودة فى ذاتها وإنما هى موجودة فى نفوس المبدعين والمتذوقين

وإذ يتنبه كروتشه إلى ما فى القول بأن الأشياء الجميلة والأعمال الفنية غير موجودة فى ذاتها من تناقض ظاهرى ؛ يلجأ إلى علم الاقتصاد ليضرب مثلا يقرب المسألة من الأذهان فيقول : إن الاقتصاد لايعرف للشئ فى ذاته قيمة ، وإنما القيمة هى وليدة العرض والطلب وليست وليدة صفات طبيعية فى ذات الأشياء . وإذن فالاقتصادى الذى يبحث عن القيمة على هدى الصفات الذاتية للشئ يرتكب نفس الخطأ الذى يقع فيه من يبحث عن الجمال فى المظاهر المادية التى تبدو فيها الأشياء الجميلة أو الأعمال الفنية

ومن هذه التفرقة بين الأشكال المادية التى تتجلى فيها الأعمال الفنية وبين العمل الفنى فى ذاته يخرج كروتشه بمبدإ وحدة الفن ؛ فهو يرى أن التمييز بين الفنون المختلفة إنما هو تمييز غير جوهرى مرجعه إلى الشكل المادى الذى تبدو فيه آثار مختلف الفنون كالأصوات فى الموسيقى والألفاظ فى الشعر والألوان فى التصوير ، أما فى الجوهر فالفنون المختلفة التى جرى العرف على التمييز بينها تربطها وحدة قوية ، لأن العمل الفنى لايتوجه إلى الحواس التى ترى أو تسمع ، وإنما يتوجه إلى النفس البشرية فى عمومها ، وتأثيره فى تلك النفس واحد وإن اختلفت الاشكال المادية التى تبدو فيها آثار الفنون . ومن ثم فإن كروتشه لايقر من يرون لكل فن من الفنون الجميلة قواعد استاتيقية خاصة به ، ويرى أن فلسفة الجمال ينبغى أن تشمل بذات القواعد الفنون كلها لأنها فى حقيقتها فن واحد

هذا وإن عملية الإبداع الفنى قد نالت من اهتمام كروتشه جانباً كبيراً ؛ ولا غرو فهى من أهم المشاكل التى يتناولها الباحثون فى الفن والجمال ، وفى صدد الكلام عن الإبداع الفنى يشير كروتشه إلى التفرقة المعتادة بين الإلهام والتعبير ، ويرى فيها ذات المشكلة التى تتجلى فى نواح أخرى من الفلسفة كما فى مسألة الباطن والظاهر ومسألة العقل والمادة ومسألة الروح والجسم ومسألة الإرادة والفعل

ومشكلة الإلهام والتعبير — منظورا إليها على هذا الوضع — هى عند كروتشه مشكلة لاتقبل الحل ؛ لأن التفرقة المبدئية بين باطن وظاهر أو عقل ومادة أو إلهام وتعبير من شأنها أن تحول دون النفاذ من نطاق إحدى الفكرتين إلى نطاق الأخرى ، ذلك أن مانسميه « الروح » — مثلا — لايمكن أن نتصوره إلا حالا فى جسم ، ومانسميه الإرادة لانعرفه إلا متمثلا فى أفعال — وهكذا ؛ فإن الثنائية لاتؤدى عند فيلسوفنا إلا إلى أحد أمرين : فإما القول بعدم الإدراك ، وإما نفى المعرفة أو اللاأدرية

وإذا كانت المشكلة على هذا الوضع غير قابلة للحل فلا يشك كروتشه فى أن وضعها ذلك الوضع خطأ ينبغى تصحيحه ؛ وتصحيحه هو فى القول بوحدة الإلهام والتعبير . فالإلهام لايمكن أن نتعرفه إلا إذا ظهر فى صورة تعبيرية ، فهو والتعبير إذن شئ واحد ، ولا إلهام إذن من غير تعبير . وهنا يسخر كروتشه ممن يدعى أن لديه أفكاراً لايستطيع أن يعبر عنها ، أو أن فى ذهنه لوحة لايستطيع أن يرسمها ، وينكر على هذا وذاك وجود مايزعمانه من إلهام

يبنى كروتشه مبدأ وحدة الإلهام والتعبير على نفى الثنائية . وليست المسافة بين نفى الثنائية وبين القول بوحدة الوجود بالمسافة الكبيرة عند كروتشه ، فهو يرى أن فلسفة الجمال تسام بمبدإ وحدة الإلهام والتعبير فى بناء المبدإ الأكبر مبدإ وحدة الوجود . وعنده أن إبداع قصيدة من الشعر ينطوى على اللغز الأعظم الذى ينطوى عليه إبداع هذا الكون الكبير

وبعد ، فهذه لمحات من آراء بنديتو كروتشه فى فلسفة الجمال ، لانزعم لها أنها أحاطت بهذا الجانب من فلسفته كما ينبغى أن تكون الإحاطة ، ولكن إذا تيسر لهذه اللمحات أن تلفت القارئ العربى إلى هذا الفكر العظيم الذى لم ينل فى بلادنا قسطه العادل من ذيوع الصيت فذلك حسبها وكفى

الإسكندرية جمال مرسى بدر